PP-575-589
P-ISSN : 2716-8093 E-ISSN : 2716-8212

النقد البيئي وسمات النص الأخضر حدود النظرية ومرتكزات المقاربة الإيكولوجية

Ecocriticism and the features of the green text, the limits of the theory and the foundations of the ecological approach

كريمة بورويس
karima.bourouis
جامعة محمد الصديق بن يحي . جيجل(الجزائر)، karima.bourouis@univ-jijel.dz

تاريخ الاستلام: -2024/04/30 تاريخ القبول: -2024/09/30 تاريخ النشر: 2025/12/25

ملخص:

يتم تداول مصطلح "النقد البيئي" أو النقد الإيكولوجي Ecocritism على أنه مقاربة نقدية جديدة ومعاصرة، تتأسس على النقد الثقافي، وتقوم فرعا من فروعه، تحاول فحص الآليات التي يعتمدها الأدب في تمثيل الطبيعة، وتسعى إلى استخلاص المكونات البيئية الظاهرة والمضمرة في نصوصه.

لكن الملاحظ على مستوى الأبحاث و الدراسات العربية التي تبنت المقاربة الإيكولوجية، غياب التمثل العميق للمهاد النظري المعقد الذي تتأسس عليه هذه المقاربة، مما يجعل الكثير من الدراسات التي تدعي ممارسة النقد البيئي، ضحلة و سطحية، بحيث يكتفي أغلبها برصد الملمح البيئي، ثم التعامل معه تعاملا جماليا أو موضوعاتيا مغيّبا للمرتكزات النظرية التي ينبغي لكل مقاربة إيكولوجية أن تتمثلها لحظة الاشتغال النقدي، وغير مُراع للسمات التي يجدر بنص ما أن يستوفيها، حتى يتسنى له أن يُعتبر نصا أخضرا يملك إمكانات الاستجابة لأدبيات المقاربة الإيكولوجية.

توضيحا لهذا اللبس، و تبديدا لسوء الفهم المكتنف لطبيعة المقاربة الإيكولوجية وأسسها، ستحاول هذه الورقة البحثية أن تعين حدود النظرية الخضراء في النقد الأدبي، و ترصد السمات والعناصر الفنية و الرؤيوية التي تميز النصوص الخضراء عن غيرها.

كلمات مفتاحية: النقد البيئي. النقد الإيكولوجي، الأدب البيئي، النص الأخضر، الدراسات الخضراء،الجماليات البيئية، الأمبريالية البيئية.

Abstract:

The term Ecocritism is widely used as a new and contemporary critial approach based on cultural criticism and as one of it is branches. It attempts to examine the mechanisms that literature adopts in representing nature, and seeks to extract the apparent and implcit environmental components in its texts. aut what is noticeable at the arab research adopt the Ecocriticism absence of a deep representationof the complex theoretical foundation on which this approach was founded.

To clarify this confusion ,and todispel the misunderstanding surrounding the nature of the Ecological approach and its foundations, this research paper will attempt to difine the limits of this approach and monitor the technical features and element that distinguish green textes from others.

Keywords: Environmental Criticism, Ecocriticism, Green text, Green Studies, Environmental Aesthetice, Environmental Imerialism, Environmental Literature.

* Auteur correspondant : **كريمة بورويس**

Langues & Cultures / © 2025 The Authors. Published by the University of Adrar, Algeria.
This is an open access article under the CC BY license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/)

مقدمة:

تقوم المقاربة الإيكولوجية للأدب على فرضية أن القيمة الجمالية المهيمنة فيه، لا تلغي قيما وأبعادا أخرى منها: القيمة البيئية التي هي قيمة جوهرية بالنسبة للاشتغال النقدي الإيكولوجي؛ حيث يسعى . هذا الأخير. إلى رصد التمثيلات البيئية واستنطاق المؤشرات الدلالية والرمزية التي تحيل إليها. والواقع أن العلاقة بين الإبداع الأدبي والمكون البيئي ليست جديدة، يكفي أن نستحضر التراث الأدبي الرومانسي والرمزي الغربي، أو نستنطق الذاكرة الشعرية العربية القديمة، حتى نقف على حضور طاغ ومكثف للمعجم البيئي بكل تنويعاته؛ الرعوية والصحراوية والحيوانية والجغرافية والنباتية وغير ذلك. إلا أن الملاحظ هو أن التصور النقدي المعاصر، أعاد إنتاج هذا المكوّن بما يتسق مع السياقات الفلسفية والنقدية الفاعلة في الخطاب المعرفي المعاصر. وهذا التصور المحيّن للتمثيلات البيئية داخل النصوص الأدبية. هو ما نعتبره محفزا قويا للبحث في هذه المسألة.

يتمثل سبب اختيارنا لهذا الموضوع إذن: في محاولة التعرف على دلالات إعادة إنتاج المنظور البيئي في الخطاب النقدي المعاصر وأبعاد اعتماد هذا الخطاب للملمح الطبيعي/ البيئي كمنطلق محوري في التعاطي مع النصوص الأدبية، إلى درجة اتخاذه له مرتكزا لمقاربة نقدية قائمة بذاتها هي المقاربة "البيئية الإيكولوجية". أما السبب الثاني، فهو ملاحظة اتجاه معظم الدراسات إلى الاشتغال التطبيقي مفضلة إياه على الخوض في إشكالات التأسيس وأسئلة النظرية، وهي . في اعتقادنا . إشكالات من الضروري توسيع النقاش فيها خصوصا في حال كانت المقاربة جديدة وغير مكتملة التأسيس، أو على الأقل غير واضحة لدى الكثيرين كما هو الحال النظرية الإيكولوجية في الادب و النقد. وعليه، فإن هذه الورقة هي محاولة لإقامة تصور نظري مؤسِّس للنقد البيئي، من شأنه أن يساعد في توسيع الرؤيا وتعميق الممارسة النقدية النقدية الإيكولوجية أولا ، وإتاحة إمكانية التمييز بين ما يدخل في دائرة الأدب الأخضر، وبين ما لا يدخل فيها ثانيا.

يقودنا هذا الكلام رأسا إلى إشكالية هذه الورقة،وهي متمثلة أساسا في مساءلة تلك العلاقة الشائكة التي يبنيها المتخيل الأدبي إزاء البيئة من جهة، ودواعي نشوء هذه العلاقة وسياقاتها ومخلفاتها من جهة أخرى؛ كيف تتمثّل النصوص المعاصرة البيئة؟ وكيف تمثِّلها؟ ما دور الأدب في إثراء حلقات النقاش الدائر حول الأزمة البيئية المعاصرة؟ كيف يقرأ الأدب هذه الأزمة وكيف يشخّصها؟ هل يسعى الأدب صناع هذه الأزمة ؟ هل يدينهم؟ أم يموه ويدلس ويخاتل؟.ما دور الوعي المعرفي المعاصر بأشكاله المختلفة (مابعد الحداثي وما بعد الكولونيالي و ما بعد النسوي ...إلخ) في صياغة التصور النظري للمقاربة الايكولوجية؟، ثم ما نوع النصوص التي تصلح لهذه المقاربة؟ هل كل نص تطغى فيه الطبيعة بمؤثّثاتها هو نص أخضر؟، وهل كل أدب تحضر فيه المكونات البيئية بكثافة هو أدب بيئي؟. هذه الأسئلة وأخرى متفرعة عنها، هي ما تسعى هذه الدراسة لإيجاد أجوبة لها.

منهجيا، وبما أن النقد البيئي هو فرع فروع النقد الثقافي، فإن القراءة الثقافية هي الخيار المنهجي الأكثر ملاءمة وحضورا في هذا البحث، لكن تدعيمها بآليات أخرى كالتفكيك والتأويل كان ضروريا في مقاربة النماذج المدروسة.

فيما يتعلق بأهمية الدراسة، نزعم بأن هذه المحاولة، هي ترجمة لمسعى المساهمة في إثراء بيبلوغرافيا النقد البيئي العربي التي تشهد . بسبب جدة المقاربة وحداثتها . نقصا كبيرا، فالتجربة الإيكولوجية العربية لا زالت بعيدة من حيث الكم والكيف معا عن التجربة الغربية في هذا المجال. ومما قد يزيد من أهمية البحث في هذا الموضوع، تلك الفجوة الملحوظة على مستوى التأسيس والتنظير؛ الجسور الواصلة بين النظرية والممارسة لازالت مهلهلة وغير واضحة المعالم، ومع علمنا بأن حدود النظرية الإيكولوجية ومرتكزات المقاربة البيئية، هي مسنبتة وبصورة شبه كاملة من الروافد مابعد الحداثية وما بعد الكولونيالية وما بعد النسوية في النقد والفكر وتحليل الخطاب، نقتنع بحقيقة أن تغييب هذه المرجعيات، ينقص من القيمة التأسيسية لأي دراسة، وطالما أن هذه المرجعيات هي الرافد النظري للممارسة النقدية الإيكولوجية، والمنهل المنهجي لآلياتها التحليلية والقرائية، فإن الإلمام بها هو ما يضمن وجاهة النتائج وسلامتها.

وجود هذه الفجوة البحثية لا ينبغي أن يدفع بنا للتقليل من أهمية دراسات سابقة ساهمت بكفاءة في مراكمة الاشتغال الإيكولوجي، خاصة وأن مجمل الخطابات المعاصرة في النقد والفكر والسياسة والاقتصاد و التربية وغير ذلك، بوأت القضية البيئية مركز الصدارة في النقاش والبحث، والتفات الخطاب النقدي العربي المعاصر إلى النقد البيئي، يبرهن بوضوح على ديناميته في التجاوب مع أسئلة العصر، ويكشف عن جاهزيته للانخراط في قضاياه الحيوية، وبالبحث عن أولى الدراسات الإيكولوجية العربية، نعثر على عنوان مهم وتأسيسي، وهو في الواقع عبارة عن فصل في كتاب لـ (حفناوي بعلي) يحمل عنوان :" مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن" (بعلي، 2007) ، يتعلق الأمر بالفصل الثامن والأخير والموسوم بـ "النقد الإيكولوجي البيئي" الذي انشغل فيه الباحث بتحديد موقع النقد البيئي ضمن الخارطة النقدية المنهجية المعاصرة، كما تحدث عن علاقة هذا النقد بالمناخ المعرفي المعاصر وقضاياه الكبرى، فبيّن كيف قادت شروط هذا المناخ وأسئلته العويصة، الخطاب البيئي الى دائرة العلوم الإنسانية، مما أتاح استخدام عبارة:" اخضرار العلوم الانسانية"، ومن ثم "اخضرار" النقد و "اخضرار" الأدب/ النص، ليكون ذلك كله بمثابة الإيذان بتبني هذه الميادين للخطاب البيئي والمشاركة في صياغته والتمكين له. واستجابة للطبيعة "البينية" للنقد البيئي، فقد شرح (بعلي) المنظور النقدي الإيكولوجي في ضوء الخطاب السياسي والأخلاقي والتربوي المعاصر. مبرهنا بذلك على علاقته الشائكة بمجمل فروع المعرفة المعاصرة. ومهما يكن من أمر،فإن هذه الدراسة تعتبر دراسة تأسيسة على المستوى العربي، لأنها كشفت عن وعي صاحبها بالهوية المنهجية والمعرفية للنقد البيئي، هذا الوعي الذي لا يتجلى على مستوى دراسات أخرى، اعتقد أصحابها بأن مجرد الوقوف على عنصر البيئة في النصوص الأدبية هو نقد بيئي فيما الحقيقة هي غير ذلك. وهذا هو الانشغال نفسه الذي عملت عليه الباحثة (وداد نوفل) ضمن كتابها القيم:"النقد البيئي الإيكولوجي بين التأصيل التأسيسي والمفاهيمي و الطرح التطبيقي . رواية القندس أنموذجا " (نوفل، النقد البيئي الإيكولوجي بين التأصيل التأسيسي و المفاهيمي و الطرح التطبيقي . رواية القندس أنموذجا، 2022) ؛ تصحيح ما اكتنف مفهوم النقد البيئي من غموض، وتعيين ما التبس من سمات النص الأخضر وخصائصه، مع إجابات جديرة بالاهتمام عن كثير من الأسئلة التي تُطرح عادة بين يدي هذه المقاربة الجديدة،هو ما شكل محاور عريضة لهذا الكتاب. وعطفا على هذين العملين المهمين، ظهرت في الآونة الأخيرة توجهات لافتة إلى اعتماد هذه المقاربة في تحليل ودراسة كثير من النصوص والتجارب مما يُلمس فيها جنوحا للمعطى البيئي، إذ بمجرد تفحص محتوى البوابة الجزائرية للمجلات العلمية مثلا، أو تفحص رصيد النقد البيئي على مستوى شبكة الأنترنت، سيتشكل لدينا انطباع مؤداه: أن النقد البيئي بدأ يجد طريقه الى اهتمامات الاكاديميين الجزائريين والعرب، وذلك يتجلى بوضوح في الأبحاث المنشورة إلكترونيا ضمن المجلات والمواقع و المدونات المعتد بها أكاديميا. فيما يبقى حظ الكتب قليلا جدا إلى حد الآن.

فيما يتعلق بأهداف هذه الدراسة فهي تتمحور حول:

. لفت النظر إلى ضرورة ربط النقد الايكولوجي بسياقه المعرفي و المنهجي، وخصوصا المرجعية النقد . ثقافية والمرجعية ما بعد الكولونيالية.

. بيان سمات النصوص التي تصلح لهذا النوع من المقاربات، ذلك أن ليس كل نص يُلحظ فيه حضور مكثف للمكون البيئي، يكون قابلا للمقاربة الإيكولوجية.

1 . **الخطاب البيئي والسياق البيني للمعرفة المعاصرة:**

يكشف لنا التأمل في جوانب التجربة الانسانية المعاصرة، عن ممارسات غير مسؤولة وغير أخلاقية، قام بها الإنسان اتجاه البيئة، وقد قامت العديد من الخطابات، وابتداء من الستينيات والسبعينيات بفضح تلك التجاوزات وإدانتها. ومع الوقت أخذ الخطاب المنتصر للبيئة وقضاياها يتقوّى ويتجذر في المجتمعات المعاصرة، حتى أصبحت الفعاليات البيئية اليوم من أنشط الفعاليات وأكثرها تأثيرا على مصادر القرار وسياسات الدول، فباسم البيئة ودفاعا عن سلامتها، أصبحت هذه الفعاليات تفرض إملاءاتها وتملي شروطها الملزمة على الجهات العلمية والسياسية والاقتصادية والصناعية، معتمدة على حجاجية خطابها وعدالة قضيتها، ومتئكة على حزمة من المخاوف والتهديدات الآيلة الى التحقق في القريب، أين سيكون على الإنسان أن يدفع ضريبة كل الأضرار والجرائم التي ألحقها بالبيئة طوال القرون الثلاثة الأخيرة.

كان من تبعات ذلك أن اتخذ الخطاب البيئي شكلا بينيا ضاربا في كل الفروع التخصصية، ففي معظم التخصصات صرنا نجد تيارا بيئيا يتولى مهمة تنمية الوعي بالمخاطر البيئية؛ الاقتصاد البيئي، علم اجتماع البيئة. التربية البيئية، الأخلاق البيئية، الأدب البيئي النقد البيئي،...إلخ. وفيما تختلف الرؤى وتتباين آليات التعاطي مع هذا الموضوع، تلتقي في الهدف، وهو إنقاد ما يمكن إنقاده واستعادة روح الطبيعة، مع تنمية الإحساس بوضعيتها الأمومية اتجاه الكائنات الأخرى بما فيها الإنسان. الهدف . باختصار. هو الكفّ عن الإذعان لفكرة المركزية البشرية، والتمكين لقناعة بديلة، هي قبول المشاركة، فالإنسان هو جزء من الكون، وليس الكون كله.

2 . **الأسس الفلسفية و المعرفية للنقد البيئي:**

حينما اقترح (إدوارد سعيد) و(غرينبلات) و(ليتش) و(جيمسون) و(إيغلتون) وغيرهم من النقاد الثقافيين العدول عن الفكر ما بعد البنيوي المحتكم إلى مبدإ الفصل بين اللغة و التجربة (بورويس، 2024، صفحة 262)، يكونون قد أسسوا فعليا للنقد البيئي، وإن لم يقصدوه حرفيا، فقد أسسوا له مبدئيا وضمنيا، وذلك من خلال التحريض على إنهاء عصر الحياد النقدي والأدبي والفلسفي والمعرفي، والدعوة إلى الانخراط في "الدنيوي"، أي الانشغال بالقضايا والأزمات المعيشة على مستوى الواقع، هذا التحول سرعان ما أخذ مسارات متعددة تعدد الرهانات والتحديات التي يواجهها الوجود الإنساني في مناخه المعاصر، ولعل أكثر الرهانات إلحاحا، هو الرهان البيئي والإيكولوجي الذي أخذ مظهر الأزمة التي تشعبت وتجذرت بالقدر الذي شعر معه الإنسان بالعجز، فلأول مرة منذ ثلاثة قرون يعترف المجتمع الإنساني، ومن قلب الخطاب البيئي، بأنه غير متحكم في زمام الأمور، ولأول مرة أيضا، يعترف بأنه المسؤول المباشر والوحيد عن الوضعية البيئية المأزومة. إن الإنسان الحداثي وما بعد الحداثي (العاقل، الماركسي، الرأسمالي، الذرائعي، المادي، المستعمر، الإمبريالي ...إلخ)، هو الذي . ومن وراء سردية البطولة الكونية . عزف سمفونية النهاية الوشيكة للوجود الطبيعي في هذا الكوكب، ومكّن لحياة أخرى بديلة مرعبة وعجائبية، عجائبية لأن العقل المعاصر ،بعد كل انتصاراته وأمجاده، لا يستطيع أن يستشرف أو يتخيل الوجه الذي ستكون عليه هذه الحياة في المستقبل، فنظرا للتدخل الإنساني المفرط في قوانين الطبيعة، لم يعد بإمكان كشوفات الفيزياء، ولا تكنولوجيات البيولوجيا، ولا استبصارات الكيمياء، ولا تقنيات الطب، ولا استشرافات دراسات الأمن الغذائي والطاقوي و... إلخ، أن تدفع عنه خطر تقلبات البيئة وردود فعلها القاسية.

انخرط إذن الخطاب الفلسفي . في سياق الاستجابة لأدبيات النقد الثقافي بكل حمولته المعرفية. في مناقشة الوضعية البيئية وانخرطت من ورائه كل الخطابات التي همها المساءلة والفضح وكشف المسكوت عنه، في هذا الموضوع، كما تبنى المتخيل الأدبي في كثير من نصوصه القضية البيئة وجعلها تيمة محورية له، متخذا أشكالا تمثيلية بالغة الترميز والإلغاز، عقّدت عملية الكشف والاستنطاق،بيد أنها برهنت بعمق على ريادية الأدب في التعبير عن القضايا الإنسانية الكبرى، وأثبتت جاهزيته لمناقشة الأسئلة الوجودية العصية.

ظهر في سياق هذا الزخم الخطابي ما غدا يسمى بالأدب البيئي، وصارت صفة "الاخضرار" صفة صالحة لأن تطلق على المنتجات الأدبية أيضا، وليست المنتجات الثقافية والنفعية الأخرى فقط، لكن الذي يجب أن ندركه هو أن ليس كل النصوص هي نصوص خضراء لمجرد أنها تتحدث عن الطبيعة، أو تستحضر عناصرها بنوع من البذخ، فثمة حدود واشتراطات تقنن استخدام هذا المصطلح،وتقيد دلالته. وتوجهها صوب نمط محدد من الاستجابة، محكوم بأسس الأرضية المعرفية والفلسفية التي انطلق منها وهي أرضية "بعد" ما بعد الحداثة.

يفترض الاشتغال النقدي "بعد" ما بعد الحداثي، أن تتم قراءة النص الأدبي في سياق ثقافي؛ أي في سياق التجربة الإنسانية،حيث سيُتلقى على أنه استجابة فنية لتجربة وجودية وواقعية. وعلى هذا فإنه لا يمكن الاستمرار في التعاطي مع النصوص على أنها مكونات جمالية (البنيوية) أو خطابات مفرغة من المعنى المرجعي، ومنكرة للواقع (ما بعد البنيوية)، بل سيتم النظر إليها على أنها عناصر لغوية حاملة لمواقف إنسانية، سياسية، وجودية، حقوقية... إلخ، ومنطوية على إيديولوجيات وقيم سائدة في النسق الثقافي الذي يتمثله الوعي الكاتب، وغايات التحليل هنا، تنصرف إلى استخراج مكونات الخطاب المضمر المشكل غالبا من مكونات إيديولوجية وثقافية مسكوت عنها.

وفي حال كان الاهتمام بيئيا، فإن الموقف المعبر عنه، هو موقف دفاعي منتصر للبيئة، ومتبن لقضيتها. أما الهدف فهو التقاط دلالات الإدانة والفضح الموجهة . ضمنا أو علنا. للأطراف المسؤولة عن تحبيك سردية البيئة / الطبيعة المهيمن عليها، والمتحكم فيها بدعوى العلم والتقنية، أو بدعوى "تمدين" العالم من خلال نقل الحضارة إلى كل مناطقه، مع ملاحظة أن هذا الكلام الأخير هو الوصف المهذب الذي روجه الغرب المتمدن لنفسه، في معرض تبرير حملتة الاستعمارية المقيتة على الأرضي الإفريقية والآسياوية والأمريكولاتينية.

3 . النقد البيئي مقاربة اصطلاحية:

النقد البيئي Ecocritism هو منظور يتم قراءة النصوص الأدبية بوحي منه، قد نجد له بدائل اصطلاحية أخرى مثل:"النقد الإيكولوجي"، أو "النقد الأخضر"، أو "الدراسات الخضراء". كما قد نعثر له على تنويعات ومسارات فرعية مثل:"الجماليات البيئية" أو "الشعريات البيئية" أو " النسوية البيئية".

السياق الغربي لهذا المنظور، يؤوب إلى "النظرية الخضراء" Green THeory التي هي نظرية بينية، تشمل اختصاصات معرفية غير قليلة جمع بينها الهم البيئي، وأفرزها ذلك "التطور الذي حصل ضمن الدراسات الأدبية الثقافية، وهي فرع يهتم بالعلاقة بين الكائنات الحية وبيئاتها "(Malpas & Wake, 2001 , p. 154)

أما الاشتقاق اللغوي للنقد البيئي في الأصل الاجنبي اللاتيني، فمصدره جذران إغريقيان قديمان: oikos و household أي: الأسرة أو منزل الأسرة، و logos و تعني word اي كلمة.

غير أن الاستخدام المعاصر، حول الدلالة من المنزل إلى البيئة، ليصبح المعنى متجها للتعبير عن الاهتمام البيئي عموما، وقد أخذ هذا الاهتمام تسميات عديدة، إلا أن الأكثر تداولا منها هي: "الدراسات الخضراء" Green Studies أو اسم "النظرية

الخضراء". وفي النقد الأدبي نجد مصطلح (ecocriticim) (Malpas & Wake, 2001 , p. 154) ، أي النقد البيئي أو النقد الايكولوجي.

4 . مرتكزات المقاربة الإيكولوجية:

1.4 . البينية والخطاب المتعدد:

يتأسس "النقد البيئي" معرفيا على علم البيئة، و"علم البيئة هو دراسة الأرض بوصفها موطننا، بوصفها علما" (أوين، 1975، صفحة 11)، لكن هذا المهاد العلمي المنفصل، سرعان ما تحول إلى مجال معرفي بيني، وقد شاع هذا الاعتقاد نتيجة الانتباه إلى أن البيئة هي مجال لكل نشاط إنساني مهما كان نوعه، وهي تتبادل التأثير والتأثر مع كل نشاط يمارسه الإنسان فيها. إن كون علم البيئة هو مفهوم :"... يغطي تقريبا كل شيء يرتبط بالكائنات الحية، كما أنه يشمل كائنات حية أخرى، وجزءا من عالم الجماد الذي تحدث فيه الحياة" (أوين، 1975، صفحة 11)، لا يستطيع لوحده فحص آثار الممارسات البشرية القريبة وطويلة الأمد، كما أنه لا يملك الأدوات اللازمة لمناقشة تلك الآثار والحكم عليها، وهذا ما دفع الى فتح ملف البيئة داخل تخصصات معرفية عدة بغرض إكمال ما تجاوز علم البيئة. لقد استدعت الأزمة الحالية أن تتخذ البيئة موضوعا للعلم التجريبي، وتُجعل في الوقت نفسه موضوعا للعلوم الإنسانية،فأمام قضيتها المعقدة لا مجال على الإطلاق لإقامة حواجز ابستمولوجية، إنها وفضلا عن كونها ظواهر ووقائع، هي قضايا وإشكالات، تتطلب إشراكا للضمير الإنساني السليم الذي يشعر بمسؤوليتة الكاملة عن الخراب الذي لحق بالبيئة، والذي يحاول أن يصحح العلاقة التي طبعتها المصلحة والبراغماتية، فيحولها إلى علاقة شراكة ومحاورة ومصالحة. وإذا كانت فكرة "البينية" هي السمة الأبرز للمعرفة المعاصرة، فإن النقد الايكولوجي هو نموذج ممتاز للبينية؛ لأنه يجمع بين تخصصات وفروع مختلفة.

تبعا لذلك ظهرت . في منتصف القرن العشرين . اهتمامات داخلية ومتواضعة مبدئيا داخل فئة محدودة من التخصصات، لكن ومع حلول الثمانينيات والتسعينيات، ظهر الخطاب البيئي كخطاب لافت وقوي، دامغ الحجج وكبير التأثير في مراكز القرار حيث تمكن من أن يستحوذ على منابر حقوقية وسياسية دولية وعالمية، فصار للبيئة مؤتمراتها وقممها واتفاقياتها وأيامها العالمية، وهذا ما دفعها لواجهة النقاش العالمي. كل ذلك تم تحت وطأة الشعور بالأخطار المميتة المهددة لها. وبهذا يمكننا القول أن الدراسات الخضراء لا تقتصر فقط على الأدب، بل تشمل كل أنواع الأعمال و الفنون الأدب الموسيقى، السينما ... الخ (Malpas & Wake, 2001 , p. 154) ، كما تشكل مركز اهتمام كل المعارف و التخصصات.

فيما يتعلق بالمساهمة النوعية للنقد الأدبي في الخطاب البيئي، وبعد تسجيل ملاحظة تأخر تحول البيئة كموضوع للدراسات الأكاديمية أساسا، ثم الدراسات النقدية تحصيلا، لأن ذلك لم يحصل إلا في نهايات القرن العشرين .(Malpas & Wake, 2001 , p. 154)، فإن هذا التأخر لم يؤثر سلبيا على نوعية النتائج المحققة. إن ريادية الأدب في تمثيل الطبيعة، ودوره الكبير في صناعة وعي عميق بها سرع جهود النقد في صياغة منظور متطور مؤهل لأن يناقش المسألة البيئة وفق طروحات عالية المستوى، فليس لأحد أن يكشف "قوة الأدب في الهام قرائه بفكرة الانخراط في فعل الدفاع عن الطبيعة" (Malpas & Wake, 2001 , p. 154) أكثر من النقد البيئي الذي يبحث أساسا في آليات الأدب في تمثيل الطبيعة. (Malpas & Wake, 2001 , p. 154)

2.4 . الموقف ما بعد الكولونيالي ومناهضة الاستعمار:

إن تمثل المنظور ما بعد الكولونيالي في تلقي النص الأخضر هو شرط أساسي ، ذلك أنه من الاستحالة الفصل بين الإساءة إلى البيئة، وبين استعمار شعب في أرضه/ بيئته، فالممارسات البيئية، هي من أخطر الممارسات التي صدرت عن المستعمِر في الأراضي المستعمرة ومحيطها الأخضر؛ سياسات الحرق، واستبدال المحاصيل، والتجارب العلمية النووية، واستنزاف الموارد والثروات،والتدخلات الطبية التجريبية، والأسلحة والقنابل وغيرها، كلها أفعال يجرمها الموقف البيئي ويدينها، ليس لأنها انتهاكات

ظرفية، بل لما تخلفه من تأثيرات بعيدة المدى، بدليل أن طي صفحة الاستعمار السياسي والعسكري، لم ينه على الإطلاق نتائج التجاوزات البيئية، وليس تجنيا القول: أن المستعمرات السابقة، لا زالت تواجه إشكالات بيئية معقدة، كانت أسبابها قد زرعت في اللحظة الاستعمارية.

إن ظهور الوعي ما بعد الكولونيالي، وتناميه ابتداء من سبعينيات القرن الماضي، مع ظهور تجليات الأزمة البيئية وتفاقمها، أثبت أن دور الإمبراطوريات الاستعمارية في نسج فصول هذه الأزمة كان خطيرا، ذلك أن العنصر البشري لم يكن وحده المعني بدفع الضريبة الاستعمارية، وإنما البيئة بمدخراتها ومواردها، وبسلامتها واستقرارها كانت ضحية لا تقل خسائرها إيلاما. إلى يومنا هذا ولأيام أخرى في المستقبل، ستبقى الممارسات غير السليمة. وغير الأخلاقية للمستعمر تفعل فعلها التخريبي في المنظومة البيئية للأراضي المستعمرة.

إذن تأسيسا على هذا الكلام، يُفترض بالممارسة النقدية البيئية، أن تتجه بغاياتها صوب مسألة التمثيلات البيئية للظاهرة الاستعمارية داخل المتخيل الأدبي، مع الحرص على عدم تغييب الحكم الأخلاقي إزاء الانتهاكات المحال إليها، إن الصياغة اللغوية الجمالية لأزمة المناخ، والتي يتخذها المتخيل الأدبي، لا ينبغي أن تحرمه . وفق ما تقتضيه أدبيات النقد الثقافي . من تسجيل موقف نقدي يسمي الأطراف المسؤولة عن هذا الجرم، ويفضح الآليات التي وظفها المستعمر في سبيل التعمية والحجب على أفعاله المشينة من خلال خطابات مزيفة للحقائق.

هكذا نفهم أن النقد البيئي هو خطاب معرفي مضاد للكونيالية كتجربة ذات أبعاد سياسية وأخلاقية وحقوقية. يكفي أن نقول في هذا السياق أن الوعي ما بعد الاستعماري نفسه، هو الذي حفّز النقد البيئي، وفتح له آفاقه المتجهة نحو الأمبريالية البيئية التي هي جانب خصيب من جوانبه.

إذن في بيان العلاقة الجدلية بين الاستعمار والمسألة البيئية في حدودها النقدية، يمكننا استحضار جزء من التحليلات البارعة لـ (آنيا لومبا) الباحثة اللامعة في الدراسات ما بعد الكولونيالية، كنموذج مفكِّك لهذه العلاقة.

مبدئيا تقر (لومبا) "أنه ومع مع حلول الثلاثينيات من القرن العشرين، كان ما يزيد عن 84% من المساحة الكلية العالم عبارة عن مستعمرات" (آنيا، 2007، صفحة 9)، وما يمكننا أن نقوله نحن . بسطا لهذا الخبر وتفصيلا فيه . أن أكثر من ثلاثة أرباع مساحة العالم، كانت بمثابة مزارع مملوكة لما لا يقل عن ربع واحد، هو مدينة العالم. ذلك أنه وحسب "قاموس أوكسفورد" فإن المصطلح (الاستعمار)، مشتق في الانجليزية من كلمة "Colonia" التي"كانت تعني مزرعة أو مستعمرة" (آنيا، 2007، صفحة 17) وكون المستعمرة "مزرعة"، يعني: أنها تخضع خضوعا تاما لمالكها وخياراته المتسقة حتما مع أهدافه ومصالحه، دون مراعاة للفروق النوعية بين مؤثثات هذه المزرعة، فكل شاغلي هذه المزرعة، يعتبرهم المالك حيوانات أو عبيدا، لا يهم، المهم هو أنهم . في نظره . كائنات "طبيعية" قابلة للتشكيل وإعادة التشكيل، وذلك يعني أيضا: أن المستعمَر المباشر هو الأرض / البيئة قبل الإنسان، لأنها هي الموضوع الاستعماري الأول، يشهد التاريخ الاستعماري المظلم، على أن الإمبراطوريات الاستعمارية حولت أراضي المستعمرات إلى أراض مباحة منهوبة مستنزفة، خيراتها موجهة رأسا إلى مصانع العالم الصناعي، وقد كان ذلك الاستنزاف مكثفا وغزيرا وغير عابئ بالنتائج الوخيمة لذلك الاستغلال النهم للموارد.

وهكذا تقاسمت البيئة "الطبيعية" والبيئة "البشرية" في البلدان المستعمرة وضعية الاسترقاق والاستعباد، ففيما كانت الموارد الطبيعية وقودا للمصانع الاوروبية، استخدمت الموارد البشرية كمنفّذ للأشغال الشاقة؛ في المناجم والمحاجر وحقول النفط والحقول الزراعية والصحاري. دون أدنى اعتبار للقيم الأخلاقية والإنسانية ناهيك عن القيم البيئية.

ومع إعلاء المستعمر للقيم النفعية في تعامله مع البيئات المحلية المستعمرة، يكون قد دخل معها علاقة ذرائعية مادية خالية من أي حميمية أو حتى تقدير، الأمر الذي يجعلنا في حاجة لاستعارة عبارة (سبيفاك) الشهيرة القائلة بخضوع المرأة للاستعمار

مرتين، بيد أننا نقصد هنا: البيئة التي استعمرت هي أيضا مرتين؛ من الانسان أولا، وذلك في إطار المركزية البشرية، ومن المستعمِر ثانيا في إطار المركزية الغربية (سبيفاك، 2020، صفحة 54) .هذا الكلام يجد له سندا في كتاب لطالما غُفل عن قيمته التأسيسية في مجال النقد البيئي، إذا غالبا مع يوظف في سياقات التحليل ما بعد الكولونيالي، ونحن لا نجده يخلو من مكونات الخطاب البيئي يتعلق الأمر بكتاب : "فتح امريكا مسالة الاخر" (تودوروف، 1992) الذي فيه صورا وحقائق تؤكد البعد البيئي لحادثة اكتشاف العالم الجديد، لقد قرأ (تودوروف) إنجاز (كولومبوس) ذاك، على أنه شكل مبكر من أشكال الاستعمار، وليس اكتشافا جغرافيا، وإنه كذلك، لأنه موجه توجيها واضحا بفكر التمركز الأوروبي المشبع بالقيم الأمبريالية، يؤكد (تودورف) أن الدافع الفعلي للاكتشاف، هو دافع مادي صرف، وهو التمكن من استغلال الذهب. وقد ساق في سبيل تأكيد ذلك، استشهادات كثيرة من أقوال نقلت عن (كولومبوس) نفسه.

ومع امتلاك (كولومبوس) لحساسية جمالية شفيفة اتجاه الطبيعة، إلا أن نزعته الاستعمارية كانت اقوى وأشد، يقول عنه (تودورف) في هذا السياق: "اذ لا يمر يوم واحد دون تسجيل ملاحظات بشأن النجوم، والرياح، وعمق البحر ،والتضاريس الساحلية" (تودورف، 1992، صفحة 25). وعند هذه المفارقة بين الحس الجمالي لدى (كولمبوس) وبين التحيز الأمبريالي، يقف (تودورف) طويلا ويأخذه التحليل إلى حقيقة أن الذات الغربية، هي ذات متعسفة وأحادية الأفق، تحاول تمثيل العالم وفق أهوائها ونزوعاتها، حتى جغرافية الأمكنة، تحاول هذه الذات إعادة تشكيلها بما يتسق مع رؤيتها للعالم، وإن خالف ذلك الواقع. حدث على ما يذكر (تودورف) . أن سأل (كولومبوس) عن يابسة، فقالوا له: إنها جزيرة، و هم يعنون "كوبا" الآن، هذا التوصيف الواقعي و الفعلي المعطى، لم يستقبله (كولمبوس) بشكل واقعي ومحايد، وإنما أنكره وأقام مكانه حقيقة أخرى تتسق مع غاياته، فحيث كانت الغاية بالنسبة له بلوغ العالم الجديد بأسرع وقت ممكن، اختلق الجواب الذي مؤداه: أن يكون ذلك المكان "يابسة" و ليس جزيرة، وذلك يعني بالنسبة له: الوصول الى جنته المنشودة. فتعامل مع هذه الأمنية على أنها هي الحقيقة.

3.4 البيئة بوصفها جسدا :

لا يفترض بالمقاربة الإيكولوجية تغييب استعارة محورية، هي كون البيئة المستعمرة جسدا، فمع فحص الممارسات الاستعمارية في الأراضي المستعمَرة، يتبدى أن الأرض التي هي المكون البيئي المحوري، قد تم التعدي على براءتها ونقائها،مما حرمها من هويتها وذلك من خلال إفراغها من مؤثثاتها ومحتوياتها الأصلية، وإحلال مؤثثات أخرى مكانها، حدث مثلا أن الإسبان " شنوا أيضا ،دون أن يدركوا ذلك، الحرب البكتيريولوجية، لأنهم يجلبون معهم الجذري الذي يجتاح الجيش الخصم " (تودورف، 1992، صفحة 68) ومع حدوث الإبادة التي يحققها الوباء، تتم إزاحة هويات، وخلق أخرى بديلة، الأمر الذي حول البيئة المحلية إلى جسد منهك ومستلب قابل للنقش الثقافي الاستعماري، وكانت محصلة هذا الفعل أن أراض واسعة من العالمين: الشرقي والجنوبي المستعمرين، فقدت كثيرا من ملامح هويتها واكتسبت هوية بديلة هي من تشكيل الذات المستعمِرة .

الأكيد أن الاستعمار في بعده الثقافي، هو إعادة تشكيل الجماعة الأصلية في مجالها الجغرافي نفسه، وهذا التشكيل يخضع لتحيزات المستعمِر وأهوائه طبعا، والذي حدث فعليا، لم يخرج عن هذا التصور، فقد تم"... تشكيل الجماعات التي تواجدت هناك من قبل، وشمل مجالا واسعا من الممارسات، من ضمنها التجارة والسلب والمفاوضات والحرب والإبادة الجماعية، والاسترقاق والثورات" (تودورف، 1992، صفحة 18) ،وهذه الممارسات بدورها كانت مرجعية تم اعتمادها في إنتاج مجموعة من النصوص والكتابات والرسائل... إلخ، ثم لم تلبث أن غدت هي نفسها موضوعا تشتغل عليه دراسات ما بعد الاستعمار (تودورف، 1992، صفحة 18).

كان من نتائج تلك الدراسات، أن تم اكتشاف تمثيلات بديلة للهوية الأصلانية، هوية ذات طبيعة بيئية خالصة، حيث تم نزع الصفة "الإنسانية" عن المجتمعات المستعمَرة ، أو تم حصرها واختزالها في البعد البيولوجي. أما ثقافيا، فلم يكن السكان المحليون إلا أنواعا بيئية طبيعية غير قابلة لاكتساب الصفة الثقافية، والتي تنقلهم من منزلة "الحيوانية" إلى مصاف "الإنسانية".

إن ذاكرة الأمكنة المستعمَرة تشهد على فصول طويلة من التلاعب بجسد البيئة والعبث به، أنواع نباتية أبيدت عن آخرها واستنبتت أنواع أخرى، حيوانات ضُيق عليها في وسطها فغادرت أو انقرضت، وجيئ مكانها بسلالات جديدة، قبائل وأعراق بشرية تم القضاء عليها بالأوبئة أو بالتهجير أو بالقتل، وأحلت محلها أعراق أخرى. إذن لقد عُمل على ترويض الجسد البيئي وتطويعه بما يستجيب لإملاءات الثقافة الوافدة، وقد تفنن صاحب كتاب "الأمبريالية البيئية" The Ecological Imperialism The Biological Expansion of Europe 900_1900 (Crosby, 2004) في بسط مجالات النقش البيئي، ورصد تجليات الأمبريالية "البيئية" على مستوى الجهود الاستعمارية التي استهدفت مناطق العالم المختلفة، خصوصا في أستراليا وكندا ونيوزيلاندا، والتي حاولت خلق بيئة معدّلة زاخرة بمؤثثات البيئة التي ينتمي إليها المستعمِر، فجاء بكل العناصر الحيوانية والنباتية الموجودة في بيئته، واستنبتها في البيئات المستعمَرة مما يثبت هوس الاستعمار بإعادة تشكيل الذاكرة البيئية للشعوب، وإصراره على مسخ هويتها، وتحويلها إلى أمكنة ناطقة بشخصيته هو متمثلة لثقافته الخاصة، ومستجيبة لذائقته، ومشبعة لحاجاته، كل ذلك تبديدا لمجمل احتمالات الشعور بالاغتراب، حتى لأن يصبح المحليون هم الذين يشعرون بالاغتراب عن مكانهم، ما حدث مع هذه الأراضي المذكورة، حدث مع البلدان الأخرى؛ النموذج الجزائري الفرنسي مثلا ، هو شاهد صارخ على الترويض البيئي، ومسخ الهوية البيئية للأرض الجزائرية؛ إذ يحفل التاريخ الاستعماري للمنطقة بممارسات إجرامية لا تقل عن الحرق (سياسة الأرض المحروقة)، واستبدال المحاصيل والمزروعات مثل الاستعاضة عن القمح بالكروم،القنبلة النووية في صحراء رقان ...إلخ .

لا تقف دلالات هذا التحويل على الجانب الاقتصادي والاستراتيجي، إنما يصل إلى البعد الثقافي، إذ لا يُجهل أن استبدال زراعة القمح والحبوب بالكروم هو إزاحة ثقافية تستهدف محو ملامح الهوية الحضارية، نظرا لما يترافق مع بعض المزروعات(موسم الحصاد بالنسبة للقمح، موسم الجني بالنسبة للزيتون، التمور...إلخ) من طقوس واحتفالات ذات دلالات رمزية تصون الذاكرة ، وتحمي الضمير الجمعي للأمة، وتقوي اللحمة الاجتماعية، وتعمق الصلة بالمنظومة القيمية والدينية، فضلا عن الجانب الجمالي والفني المرافق لهذه الفعاليات. لذلك فإن مجرد إزاحة لنوع واحد من المزروعات ذات القيمة الرمزية، من شأنه أن يربك الهوية ويحدث داخلها تصدعا ليس من السهل مداواته.

نصل إلى القول: أن الأرض بالنسبة للذات المستعمَرة وكما هي مجال للعيش، فإنها فضاء هوياتي أيضا (هومي، 2006 ، صفحة 44) ،لأن صاحب الأرض يمارس ثقافته عليها، فإن تغيرت هوية سيدها، تحولت هي الأخرى، حيث سيسعى السيد الجديد، إلى ترويضها وتجهيزها لتصبح ناطقة بضميره، ومستقبلة جيدة لنقوشه الثقافية البديلة، وفضاء متخيلا تسرح فيه تمثيلاته واستعاراته البانية لسرديته الخاصة. وهذا هو ملعب النقد الإيكولوجي الخصيب، حيث سيكون مضمارا لممارسة تفكيكية أصيلة بالغة العمق، ترفل في مقولات الاختلاف، و تغرق في أشكال المقاومة الثقافية.

4 . 4 الموقف الأخلاقي وخطاب الإدانة :

لا يمكن التعرف على النقد البيئي، إلا بوصفه خطابا مفككا ومؤولا لخطاب متخيل، ينطوي على موقف أخلاقي وسياسي وحقوقي تكون البيئة موضوعا له، إن النقد البيئي وبوصفه فرعا من فروع النقد الثقافي، تخلى عن أدبيات ما بعد البنيوية في الحيادية والانفصال عن التجربة، واتخذ موقفا مسؤولا، سمح له بأن يحوز له مكانا ضمن الخطابات التي تدافع عن البيئة الطبيعية والمحيط الأخضر وتدين الممارسات التي أساءت إليهما، لذلك يمكن القول: إنه خطاب مضاد للمركزية البشرية.

يتدخل إذن خطاب النقد البيئي بكل مرجعياته المعرفية وخلفياته الفلسفية الضاربة في أرضيات النقد الثقافي القائل بضرورة الخوض في عمق التجربة الإنسانية، ومناقشة قضاياها الملحة. والمزود بمقولات ما بعد الكولونيالية في محاولاتها الدؤوب لإبطال أشكال الهيمنة الاستعمارية، والمستلهم لأفكار النظريات النسوية وما بعد النسوية في المقابلة بين االممارسات الذكورية على المرأة والقهر الاستعماري لأراضي المستعمرات، مع استغلال أدوات ما بعد البنيوية وآلياتها في تحليل الخطاب الهادفة إلى الكشف عن أشكال التمركز والهيمنة المضمرة داخله. من أجل تسجيل حضوره في مسعى استعادة صوت البيئة، التي كانت موضوعا مهمشا مصطفا إلى جانب قائمة طويلة من المنبوذين والمهمشين (النساء، السود، ... إلخ).

نخلص إلى أنه وفي ظل الوعي البيئي الراهن، تم الدفع بالقضية البيئية لواجهة النقد الأدبي المعاصر، ليتحول بذلك إلى خطاب منخرط يملك إمكانات التدخل في المعيش، وبطريقة مباشرة ومعلنة، مثبتا بذلك كفاءته وحيوية دوره في هذا المسعى. فتساوقا مع المتطلبات الملحة لقضايا العصر، تجهّز النقد ليمارس مهمته اتجاه الانسانية وبيئتها الخضراء. وقرر أن ينصت للطبيعة ويتلمس معاناتها وأنينها المبثوث داخل الأدب، متخذا في ذلك عديد المسارات منها الشعريات البيئية، النسويات البيئية وأيضا ما بعد الكولونيالية البيئية.

5.4 تفكيك المركزية البشرية :

تأسست نظرية المعرفة المعاصرة على منظورين أساسين هما: المنظور الميكانيكي، والمنظور الذاتي (بوشنسكي، 1992، صفحة 27)، أي أن الطبيعة هي مجموعة من الظواهر الحسية محكومة بقوانين وعلاقات قائمة على مبدأي السببية والحتمية، والعقل باكتشافه لهذه القوانين وإدراكه لها يعتبر المصدر الوحيد للحقيقة الطبيعية، وما ينتج عن ذلك، هو أن الإنسان (العاقل) تمكن من الهيمنة على الطبيعة والسيطرة عليها لمجرد امتلاكه للمعرفة المفسِّرة للمنظومتها. وهكذا بنت المعرفة المعاصرة سرديتها الكبرى جاعلة من النسق العلمي في صيغته التجريبية بطلا لهذه السردية المتشربة لقيم الاعتزاز بالنوع الإنساني، والمزدهية بتسيده على الطبيعة،ورُسمت في عقابيل ذلك، العلاقة بين الإنسان/ الطبيعة على أنها ثنائية ضدية يمثل الطرف الأول منها (الإنسان) القوة والمعرفة والسيادة، ويمثل الطرف الثاني (الطبيعة) التبعية والهامشية.

استتباعا لذلك، وابتداء من القرن السابع عشر، تم موضعة الإنسان كسيد، فيما مُثلت الطبيعة كعبد أو كموضوع للمعرفة وللهيمنة أيضا، فجُرِّدت وشُيِّئت ونُزعت عنها الخاصية الإنجازية والتبادلية، كما اختُصر طابعها الحيوي والدينامي في الجانب البيولوجي،أما قضية كونها عنصرا يتبادل التأثير والتأثر مع العنصر الإنساني، فقد تم إبعادها عن أدبيات النسق العلمي.

ولأجل ذلك، أخذ الخطاب العلمي يصوغ أيديولوجيته المكتنزة بدلالات المركزية البشرية، والمتشربة لمقولات المنطق الأحادي الإقصائي الذي يقضي بأن يُنظر إلى الإنسان على أنه هو المرسل الوحيد للتأثيرات، فيما الطبيعة لا تستطيع إلا أن تكون مستقبِلا كامل الخضوع والامتثال، لا لشيء، إلا لأنه هو سيدها المؤلّه، وبالتالي فهو مركز الكون، وما عداه من موجودات فهي هوامش.

تسلّط هذا الخطاب وهيمن، بمناسبة سطوع فجر الكشوفات التي عوّمت العالم في بحر التقنية، وحلّقت به في الفضاء ليس تخييلا ولكن حقيقة، وفقدت الطبيعة في إثر ذلك مكانتها السامقة في الكون، وتحولت إلى مجرد موضوع / هامش / شيء / جسد ... إلخ،ومع إلحاح متطلبات الروح العلمية القاضية بإزاحة العواطف والوجدانيات في التعاطي مع الطبيعة (جيفرد، 2004، صفحة 100)،تأكدت علاقة الانفصال، وتحولت الى مبدإ مقدس، وهنا تم التنكر للطبيعة بالكامل، ووضعت قيمها المغذية للعاطفي والشعري والجمالي جانبا ، فيما تم إعلاء الجوانب النفعية والمادية، مما غيب الأخلاق البيئية والجماليات البيئية، وكبح النزوعات الروحانية المتجهة نحوها، الأمر الذي مكّن لعلاقة عدائية بين الطرفين محكومة بالهيمنة والاستعلاء والإقصاء، وهذا الشرخ ظل يتسع على مدى ما يزيد عن ثلاثة قرون. والمثير أن وجوده أخذ طابع البداهة، بل و كثيرا ما كان مدعاة للزهو الإنساني

الجامح الذي أوصل سقف الطموح إلى أعلى درجاته ابتداء من سبعينيات القرن الماضي، مع تدشين عصر مجتمع المعرفة وتداعياته المتمثلة في حرب النجوم وتطور تقنيات الاستنساج والتعديل الجيني، واكتساح نموذج الإنسان السايربوغ للحياة المعاصرة، وكذا نشوب الحروب البيولوجية، وتعميم الرقمنة المفرطة...إلخ.

لقد كانت التحولات التي جرت في الخمسين سنة الماضية، شاهدة على جرائم شنيعة ارتكبها العلم في حق البيئة، ومن حيث اعتُقد أن كل تلك الجهود إنما قدمت على شرف الإنسان، تبيّن أن ذلك كله قرّب أجله، وحمل له متاعب جمة وأمراضا مستعصية وكوارث مميتة سمّمت البيئة وحولتها إلى مستنقع قذر مفتقر لشروط الحياة النظيفة والصحية. وحينئذ فُهم أن الطبيعة /البيئة وهي تتلقى التعديلات البشرية، كانت في حالة تآكل داخلي، وتحول بطيء فقدت معه روحها وهويتها شيئا فشيئا، إلى أن وصلت إلى مرحلة التأزم البالغة منتهاها في أيامنا هذه.

وهكذا يمكن القول: بأن الخطاب العلمي بجموحاته الشموس، وبممارساته السلطوية، وبتمركزه البشري، مسؤول عن شوط طويل من أشواط التدمير البيئي، ولذلك فقد احتاج لمن يوقف مدّه ويراقب توسعاته، وكان الخطاب البيئي في الأدب أحد الخطابات المقاوِمة والمضادة، غايته القصوى كشف الآليات التي تعتمدها إيديولوجيا العلم في فرض إرادتها ذات الأبعاد المضمرة، ومن ثم الإجهاز عليها وإبطالها من خلال أدواته التخييلية والتمثيلية، مع الحرص على اتقاء شبهة معاداة العلم. فالغرض بالنسبة له لا ينبغي أن يكون متجها صوب محاربة العلم كقيمة، إنما المبتغى هو مقاومته كايديولوجية ذات أبعاد استعمارية وأمبريالية.

6.4 تفكيك التمثيلات البيئية :

في إطار شرعنة الفعل الاستعماري، تم خلق صور نمطية متكررة المعالم للذات المستعمَرة، حيث تم تسويتها بالمؤثثات البيئية الموجودة في الطبيعة، لم يكن المستعمِر الغربي قادرا على تقبل الهوية الإنسانية للذوات المستعمَرة التي لم يتسن لها . وفق الوعي الغربي . أن ترتقي إلى مصاف أعلى من الحيوانية، ومن خلال السرود والخطابات العلمية الأنتروبولوجية أو الإستشراقية أو الجغرافية أو التاريخية، أو الرحلية ...الخ، يتجلى شكل تمثيلي واحد هو الشكل غير المتحضر، بل المضاد للحضارة. فكثيرا ما رُبط بين الشعوب البدائية، وبين صفاء النفس والبراءة المتأتية من الجهل من جهة، وبين التوحش والبربرية والعدوانية والدموية من جهة أخرى، وحينما تجتمع هذه الصفات في الذات الواحدة، يتأكد الطابع الفطري الطبيعي لها والمنافي للكينونة المتحضرة التي تمثلها حصرا الذات الغربية.

بيد أن هذا النمط من التمثيل عرف تفكيكا واسعا من لدن نقاد ما بعد الكولونيالية. ناقشت (آنيا لومبا) مثلا العلاقة بين المشرق والغرب من خلال الربط بينه وبين البيئة المكانية لكل طرف، حيث أكدت أن الاستعمار الجديد الممثل في الأمبريالية، هو استعمار مرتبط جوهريا بالمدينة ونسقها الحضاري، فيما المستعمَر هو بالضرورة، يشغل مناطق خارجة عن التحقق الفعلي للمدينة إنه يشغل الضواحي والأطراف "إذ البلد الأمبريالي هو الحاضرة التي تتدفق منها القوة، و المستعمرة الجديدة هي المكان الذي تخترقه وتسيطر عليه" (آنيا، 2007، صفحة 22)، وبما أن المدينة "الحواظرية" تمثل القوة المهيمنة، والغالبة والمتبوعة، فإن العالم "الآخر"، هو قرية العالم وباديته، وبذلك يتم تمثيل فضاء الغرب كمدينة تسكنها الذوات الكاملة والمحققة للإنسانية المثلى، فيما تُمثَّل المناطق الأخرى كبوادي تسكنها كائنات طبيعية.

في السرود والنصوص تظهر لنا شخصيات بدائية هانئة البال، تنعم بالجهل وبالشقاوة، مما يعطي الانطباع بأن ذلك، هو من دلائل استمرار المرحلة الطبيعية التي تحدث عنها الفلاسفة؛ مرحلة "ما قبل" اللغة و"ما قبل" الفكر ،حيث كانت العلاقة بين الإنسان والبيئة علاقة أمومية وحميمية ولاهوتية، لأن الاعتقاد الذي كان سائدا أيامها، هو أن الطبيعة إنما هي تجل من تجليات الآلهة. و هذه هي القناعة السائدة في المخيال الغربي هي بمثابة قاعدة مُمكِّنة للحتمية المكانية التي يمكن أن نعبر عنها بالقول: أنه

كلما كان وسط العيش صناعيا بعيدا عن البيئة الطبيعية، كلما نقصت الصفات الحيوانية، وحلت محلها الصفات الإنسانية، والعكس صحيح.

يمكن ان نستحضر في هذا السياق إحدى الروايات الغربية المعلمية في تاريخ السرد العالمي هي رواية " الكيميائي" لصاحبها(باولو كويلو) (كويلو، الخيميائي، ترجمة جواد صيداوي، 2008) ؛ تتمحور الرواية حول شابين أوروبيين أحدهما إنجليزي، والآخر إسباني التقيا في مصر، وكان كل منهما يحمل هدفه الخاص الذي لم يكن من الممكن بلوغه إلا في تلك الأرض العجائبية في نظرهما، كان الإسباني يمنّي نفسه بالوقوع على كنز تنبأت له به غجرية، أما الإنجليزي فكان يفتش عن كيميائي قيل له: أنه يملك قدرات خارقة تمكنه من تحويل كل المعادن إلى ذهب. تتداعى الأحداث، وتتشعب اللغة السردية لتقودنا انتهاءا إلى صورة تمثيلية للشرق غير مفاجئة ولا منزاحة عن التمثيلات الغربية النمطية؛ بيئة عجائبية طبيعية تشغلها كائنات دموية غرائزية حيوانية الطبع. والغريب أن الروائي ومن باب شهد شاهد من أهلها جعل متكلم الخطاب هو شخصية مصرية تثبت تلك الصفات على نفسها:" هناك محاربون أشداء كلهم شجاعة ويقظة سواء من هذا الجانب أو من الجانب الآخر، وكل واحد من الجيشين فخور بأن يحارب. الحرب هنا ليست حربا بين الأخيار والأشرار. هي حرب بين قوى تتصارع من أجل الظفر بنفس السلطة، وعندما تندلع حرب من هذا النوع فإنها تدوم وقتا أطول من الحروب الأخرى، لأن في هذه الحالة الله يكون الى جانب الطرفين في الوقت ذاته" (كويلو، الخيميائي، ترجمة جواد صيداوي، 2008، صفحة 115)

هذه القناعات الغيبية التي يتأسس عليها التفكير الشرقي، والتي تتجلى في الإعراض عن التفكير السببي العقلاني الذي هو صفة غربية خالصة، وكذا الاعتداد بالحرب واعتبار المشاركة فيها فعلا نبيلا وإنجازا شجاعا، يملك قيمة في ذاته، هي قناعات وخصائص مائزة لأهل الشرق ،ذلك ما تحاول الرواية تأكيده.

تُمثّل الذات العربية/ المصرية في هذه الرواية ذائعة الصيت، على أنها ذات شغوفة بالحرب ومفتتنة بالسلطة، والسلطة عند الشرقيين لا تكون للأخيار أوالشرفاء، إنما تنقاد للأكثر عدوانية ودموية، ومع هذه الخصائص الطبيعية، تختفي سمات التمدن والحداثة، بل تحتجب حتى الصفات الإنسانية، فتتم التسوية . بداهة . بين الكينونة البشرية والكينونة الحيوانية التي تبلغ درجاتها القصوى حينما تُواجه الذات الشرقية بالذات البيضاء الغربية؛ فحينما تلتقي الذات الشرقية مع الذات الغربية، تصبح ذاتا نكرة تُعرف فقط من خلال تضادها مع وجهها النقيض الذي ينفيها بوصفها حاملة لسمات مخالفة لسماته.

في مقابل صورة الراعي المتشرد الذي تحاول الذات الغربية رسمها للعربي في رواية "الكيميائي"، تسعى لخلق صورة أخرى وضيئة لنفسها، هي صورة المستكشف الرحالة، ترتسم هذه الثنائية الضدية النمطية بطرفيها وبعلاقتها السلطوية من خلال الموقف الذي استعاده بطل الرواية الإسباني، والذي حاول من خلاله إقناع والده بالسماح له بالسفر إلى مصر. بعد امتناع الأب عن الموافقة زمنا طويلا، قرر الإبن (بطل الرواية) أن يدخل في مفاوضات معه، وكان مما صدر عن الأب من كلام أثناء تلك المحادثة، أن قريته / أوربا هي مكان مستقطِب وجاذب، يأتيه الآخرون (الشرقيون) بحثا عن حياة متحضرة ومغرية، فكيف يترك هو جنته التي يحلم بها الاخرون؟ ويذهب إلى أرضهم اللافظة،سأله مستنكرا، وكان رد الإبن كالتالي :" ولكنأانا لا أعرف قلاع البلدان التي أتى أولئك الناس منها "

عقب الأب قائلا :

- " لكن أولئك الناس جيوبهم ملآ بالمال الكثير، و الكلام بيننا، الرعاة فقط يجولون البلدان ."
- " إذن سأصير راعيا" (باولو كويلو، 2008، صفحة 115)

تقترن إذن صورة العربي في الوعي الغربي بالرعوية والرعونة والغنى الممنوح من البيئة، فالمال عنده هو هبة بيئية (النفط والذهب ...إلخ)، ولا معادل له من الأداء والإنجاز، الشرقي هو ابن الفضاء الرعوي المفتوح جغرافيا، والمنغلق ثقافيا وحضاريا، وهو موضوع انتروبولوجي بامتياز ، لأنه يجسد الثقافة البدائية. أما الشرق كمكان أو كبيئة فيرتسم في جواب الابن الذي مؤداه : " بعد كل الذي جرى، لعمري كان هذا ما أراده بالضبط معرفة عوالم جديدة، حتى وإن كان مقدرا له ألا يصل أبدا إلى الأهرامات، فإنه كان قد ذهب الآن إلى أبعد مما ذهب إليه أي راع من معارفه " (كويلو، الخيميائي، ترجمة جواد صيداوي، 2008، صفحة 24). مصر/ الشرق . حسب ما يفيده تأويل الملفوظ الروائي هنا . ليس إلا وجهة سياحية أثيرة تتسق مؤثثاتها الأثرية مع غايات التاريخ السياحي، وهي أيضا؛ أي مصر موضوع للكتابة أو إعادة الكتابة بوصفهما مشروعا مغرضا ومؤدلجا ومتشبعا بدلالات التمركز الغربي المصنِّف للأمكنة الواقعة في الضواحي، على أنها أهداف نبيلة للكشوفات الجغرافية، أو فضاءات مناسبة لمغامرات رحلية تنتهي بإعداد نصوص توصّف الشعوب الأخرى بناء على تحيزات الذات الغربية.

5 . **النصوص الخضراء واختراق نظام التمثيل** :

إذا كانت المركزية الغربية قد استعملت السرود والمرويات والنصوص كأداة للسيطرة على العالم، فإن هذه الأداة نفسها قد تم استخدامها من طرف كتاب الشعوب المسيطَر عليها، مما خلق لنا نمطين من السرد متعارضين هما: السرد الإمبراطوري والسرد ما بعد الكولونيالي الذي تكفل بمهمة الرد والتصحيح، من خلال اختراق نظام التمثيل الغربي للذات الشرقية، وإعادة كتابتها بما يتوافق مع حقيقتها وتاريخها وذاكرتها ورؤيتها للعالم، ليس فيما خلقه نظام التمثيل الغربي من مكونات الهوية العربية المستنبتة من البيئة البدوية التي تشكلت فيها ذاكرتها، ما يتفق مع الواقع والحقيقة، فمعنى البداوة هو أقرب إلى الإنسانية منه إلى الحيوانية، بمعنى أنه كلما كان الإنسان قريبا من الطبيعة، كلما اكتسب صفات الرقي والنبل والعفة البراءة، وتلك هي مواصفات الإنسانية الصميمة .

هذه الخصائص المنمية للأخلاق البيئية، استثمرها المتخيل الروائي الأخضر في مسعى الرد والمقاومة الثقافية، يمكننا أن نستحضر في هذا السياق رواية "مملكة الزيوان" للصديق حاج أحمد، فقد اشتغل فيها صاحبها على إعادة كتابة ثقافة مهمة من ثقافات الصحراء الجزائرية هي الثقافة" التواتية"على نحو لم يغيّب فيه المكون البيئي، بل على العكس، إن هذه الرواية تمثل نموذجا ممتازا للنصوص الخضراء، لأنها مكتنزة بسمات تنبئ بإشاعة "روح عصر جديد " (ميشيل، 2016، صفحة 66) ،لا يقصي الطبيعة، ولا يهمشها، عصر ينهي ولو تخييليا الهيمنة البشرية على الكون، والهيمنة الغربية على العالم، و يؤسس بالمقابل لقيم المشاركة مع الموجودات والأعراق الاخرى .

يقيم (الصديق حاج أحمد) في "مملكة الزيوان" أركان سردية بديلة، تحاول استعادة الذات من خلال تمثيل هويتها البيئية المرتكزة أساسا على خصوصية المكان وجغرافيته من جهة وعلى نمط تعامل الذات مع تلك الخصوصية سواء على مستوى التجربة أو على مستوى اللغة من جهة أخرى، لغة سردية يؤثثها المعجم التواتي الصديق للبيئة، وقيم وعادات وطقوس تغطي كل جوانب الحياة ومراحلها وحالاتها، يتم تشبيكها بحرفية روائية بالغة، والأهم من هذا وذاك، هناك وعي بيئي عميق ومؤسس على زاد فلسفي و فكري مستوعب لكل أركان المعرفة المعاصرة .

تتجلى في الرواية ملامح خطاب مضاد ومقاوم، يتحدى التمثيلات الغربية ويزيفها، ويبرز بالمقابل الجانب الظلامي للحضارة المهيمنة، لقد عمل محكي الرواية على اصطناع تفكيك مزدوج استهدف الخطاب الكولونيالي بذخره المعرفي والحداثي الهائل، وممارساته الإمبراطورية الشنيعة أولا، والخطاب العلمي الوضعي بحمولاته الايديولوجية المستعمِرة للبيئة والمخلخلة لمنظومتها ثانيا. وكان من تبعات ذلك أن وُضعت السلطة الاستعمارية الفرنسية في هذه الرواية موضع الادانة، كما انوضع الخطاب العلمي موضع المساءلة، وذلك من خلال استدعاء حادثة قنبلة " رقان" . ذلك ما يكشفه الملفوظ التالي:"حقيقة حول التاريخ.

فرانسوا تيري الذي شارك في البرنامج النووي بالصحراء الجزائرية(رقان)، وباحث بمفوضية الطاقة الذرية، كان له خلال هذه الفترة تحضير لاشغال، وحذر في رسالة وجدت في مكان ما من الآثار المحتملة التي يمكن أن تسببها التجارب النووية على هذه المنطقة على المستوى الإنساني او الانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية رقان في 10 / 02 / 1969 " (حاج أحمد، 2015، الصفحات 128-129)

هذا المقطع هو ترجمة لمحتوى رسالة كتبتها الشخصية الروائية المذكورة في نص الرسالة، وتركتها في موقع الجريمة الإنسانية والبيئية الشنعية (رقان) من باب التنبيه والتحذير، وربما تبرئة للذمة والضمير، أما من حيث أبعادها التأويلية الوظيفية داخل المتن الروائي، فهي فضح للوجه القذر للعلم وللحضارة وللغرب الاستعماري، لقد كان على السكان المحليين من أبناء الصحراء المنفية أن يدفعوا ثمن الكبرياء الغربية اللاهثة وراء السيطرة على الكون، وكان على الفضاء الصحراوي رملا وطيرا وحيوانا و بشرا وشجرا وحجرا،أن يشارك في تسديد تلك الضريبة. لم تراع السلطة الاستعمارية اعتبارا لا لحرمة الإنسان، ولا لسلامة البيئة التي هي أم لهذا الإنسان، لم يفكر العلم على ما يبدو وهو مقدم على هذا الفعل في ما يحفظ سلامة الإنسان على الأرض، في الوقت الذي ادعى فيه أنه يبحث عن رفاهية الإنسان و سعادته. والحقيقة أن الشعوب (الأخرى) لم يكن العلم ليعتبرها سوى رمزا للتضحيات ووسيلة لها. تحيل الرواية من خلال هذه الإشارة البارعة إلى التضحيات الجسيمة التي دفعتها الصحراء الجزائرية بقاطنيها مثلها في ذلك مثل الشعوب المهمشة وبيئاتها المحلية، لا من حاضرها فقط، ولكن من مستقبلها أيضا. فبعد هذا الحدث الشنيع، ليس بالإمكان العودة إلى حياة الما قبل بطهرها ونقائها وسلامتها، ذلك أن لوثة المستعمر ستظل ماثلة مادامت الآثار باقية وممتدة وفاعلة فعلها السلبي والمدمر، لقد خلق الآخر الغربي بيئة مدنسة وملوثة، وحكم على الآخرين أي يعيشوا فيها.

هذا الموقف الأخلاقي والبيئي الذي اتخذه المتخيل الروائي تجعلنا ندرجه بكل اطمئنان في قائمة النصوص الخضراء، حيث قامت الرواية بدور المقاومة الثقافية على أكمل وجه، فهزّت الثقة بالتمثيلات التي سوقتها المركزيات الغربية، وأعادت كتابة تمثيلات مضادة تكشف الزيف، وتظهر الحقائق، خصوصا ما تعلق منها بالبيئة وتاريخها في البلدان المستعمرة. إن التوثيق السردي للانتهاكات النووية الاجرامية التي استهدفت الصحراء الجزائرية تشكل نقطة وازنة في القيمة البيئية لهذه الرواية.

6 . الخاتمة :

صار مفهوما الآن أن النقد البيئي إذ يحاول تبيّن الآليات التي يعتمدها المتخيل الأدبي في تمثيل الطبيعة، ويرصد القيم الجمالية الناتجة عن هذا التمثيل، إنما يفعل ذلك استنادا إلى أسس نظرية عميقة الصلة بالخلفيات الفكرية والفلسفية التي استنبتتها المعرفة المعاصرة، بكل ما يدخل في منظوماتها من نظريات كبرى، ترفد مسارات الاشتغال النقدي ومناهجه ومدارسه، مما يعني أن مجرد طغيان الملمح البيئي على نص ما، لا يعتبر مسوغا للمقاربة الإيكولوجية ما لم يبرهن ذلك النص على تمثله العميق والواعي للمنظور البيئي المتأسس على فهم الخلفية النظرية التي شكلته، كما أن الاشتغال النقدي على المعطى البيئي في تجلياته المعجمية والدلالية والمكانية، لا يضع التحليل على حدود هذا النوع من المقاربة، إلا إذا رُفدت بذخر نظري كاف لتأويله و تفكيكه وفق الاصول النظرية التي تفسره. وهنا نصل إلى مقترح بخصوص مجموع السمات التي يجب أن تتوفر في المقاربة الايكولوجية:

- الخلفية "بعد" ما بعد الحداثية أي الخلفية النقد . ثقافية التي تتجاوز مبدأ الفصل بين التجربة اللغوية والتجربة الإنسانية،وتقرأ المتخيل الأدبي في سياق ثقافي دنيوي.
- حضور الوعي البيئي من خلال تمثل القضية البيئية والالتزام بالدفاع عنها.
- تمثل السياق ما بعد الكولونيالي في تفكيك التمثيلات البيئية للهوية الثقافية.
- اختيار النصوص التي يتجلى فيها خطاب مضاد مقاوم لأشكال الهيمنة على البيئة الطبيعية.

- الموقف النقدي المضاد، ومناهضة المركزية البشرية من خلال تفكيك الخطابات المكرسة لها. والتمكين لسردية بديلة تقوم على قيم المشاركة و الاعتراف بالوجود غير البشري في الكون .
- امتلاك حساسية نقدية تمكن من التمييز بين النصوص الإيكولوجية الخضراء، وغيرها مما يكون الحضور البيئي فيها حضورا مشهديا او إطاريا شكليا.

7. قائمة المراجع

Crosby, A. .. (2004). The Ecological Imperialism The Biological Expansion of Europe. *Cambridge University Press*(2).

Malpas, S., & Wake, P. (2001). *The Routledge Companion to Critical and Cultural THeorry* . London and New York.

الصديق حاج أحمد. (2015). *مملكة الزيوان*. الأردن: دار فضاءات.

باولو كويلو. (2008). *الخيميائي، ترجمة جواد صيداوي*. لبنان: شركة المطبوعات للتوزيع و النشر.

باولو كويلو. (2008). *الكيميائي*. لبنان: شركة المطبوعات للتوزيع و النشر.

باولو كويلو. (2008). *الكيميائي* (الإصدار 16). لبنان: شركة المطبوعات للتوزيع و النشر.

بوشنسكي. (1992). *الفلسفة المعاصرة في أوربا، تر: عزت قرني*. الكويت: المجلس الأعلى للثقافة والفنون و الآداب.

تودورف. (1992). *فتح أمريكا مسألة الآخر، تر: بشير السباعي*. القاهرة: سينا للنشر.

تودوروف. (1992). *فتح أمريكا مسألة الآخر*. القاهرة: سينا للنشر.

حفناوي بعلي. (2007). *مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن* . الجزائر . بيروت : منشورات الاختلاف . الدار العربية للعلوم ناشرون .

غاياتري . ت . سبيفاك. (2020). *هل يمكن للتابع أن يتكلم؟، تر: خالد الحافظي*. السعودية : صفحة سبعة للنشر و التوزيع.

ف أوين. (1975). *ما هو علم البيئة، تر : باسل الطباع*. سوريا : منشورات وزارة الثقافة و الارشاد القومي.

ك . بايا هومي. (2006). *موقع الثقافة، تر: ثائر ديب*. لبنان: المركز الثقافي العربي.

كريمة بورويس. (2024). *النقد المعاصر و فلسفته من البنيوية إلى النقد الثقافي*. الجزائر: دار ومضة للنشر و التوزيع و الترجمة.

لومبا آنيا. (2007). *في نظرية الاستعمار و ما بعد الاستعمار الأدبية، تر: محمد عبد الغني غنوم*. سوريا: دار الحوار.

ليندا جين جيفرد. (2004). *أنثوية العلم، العلم من منظور الفلسفة النسوية، تر: يمنى الخولي*. الكويت: المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب.

ما فيزولي ميشيل. (2016). *" عود على بدء /الأشكال الأساسية لما بعد الحداثة" ، ترجمة : عبد الله زارو*. افريقيا الشرق.

وداد نوفل. (2022). *النقد البيئي الإيكولوجي بين التأصيل التأسيسي و المفاهيمي و الطرح التطبيقي*. (رواية القندس أنموذجا، المترجمون) الاسكندرية، مصر: مؤسسة حورس الدولية.

وداد نوفل. (2022). *النقد البيئي الإيكولوجي بين التأصيل التأسيسي و المفاهيمي و الطرح التطبيقي . رواية القندس أنموذجا*. الاسكندرية، مصر: مؤسسة حورس الدولية.